من حروف الذاكرة

■ الشاعر سوف عبيد - تونس

أنا من جيل فتح وعيه على الأسئلة الكبرى، في الثقافة والأدب، وفي الشعر خاصة، مثل سؤال: بأي لغة نكتب؟ أبالعربية أم بالفرنسية، أبالفصحى أم بالعامية؟!

ففي المرحلة التي أعقبت سنة ١٩٦٧م، اعترى الثقافة في تونس وفي أغلب البلدان العربية، وحتى في الشرق الأقصى وأوروبا وأمريكا، حيرة حادة، استطاعت أن تُرَجّ كثيرا من الثوابت، بسبب التأثير المباشر والحاد للأزمات التي وقعت وقتذاك؛ فمن حرب حزيران ١٩٦٧م إلى حرب فيتنام، ومن أصداء الثورة الثقافية في الصين إلى أحداث ماي ١٩٦٨م في فرنسا، وإلى حركات التحرّر العارمة في أمريكا وإفريقيا.. تلك التي كانت كالسَّيل العارم، أو كالنّار تشبّ في اليابس من الأغصان، وفي ما تهاوى من الجذوع، وانشرخ من الأغصان، وفي ما تناثر من الأوراق..

كان من الممكن أن أنخرط في سياق السائد من الشعر ،الذي كان يُراوح بين معاني الغزل والمديح، وبين معاني الرثاء والتباكي وجلد الذات؛ وكان من الممكن أن أباشر الكتابة بالعامية، متمثلا مقولةَ إنها أقرب إلى الجماهير وأسهل في التداول والانتشار؛ بل كان بوسعي أن أنخرط في الكتابة باللغة الفرنسية بوصفها اللغة الثانية في تونس، والتي يمكن أن أتواصل بها مع مدى أوسع!

ولقد بدأت فعلا في الكتابة بتلك اللغة، ولكنني بعدما اكتشفت أن في العملية انسلاخا وانبتاتا، تراجعت. غير أني لم أنخرط في الكتابة بالعامية التونسية في تلك المرحلة، وذلك لسببين اثنين، أولهما أنني علمت أنها كانت تعد دعوة للقضاء على الهوية الوطنية ذات الأصالة العربية، وثانيهما عدم قدرتي على التعبير بها عمّا كان يخالج نفسي من المعاني الغزيرة والعميقة؛ ورغم ذلك، فإني أعتقد أن الأدب العامي بما يشمله من أمثال، وحكم، وأزجال، وأغان، وحكايات، وخرافات، ونوادر، إنما هو إثراء للأدب العربي، بل هو رافد مهم من روافد تجديده وتنوّعه. غير أنه عندما تصبح الدعوة إلى ترك الفصحى وإبدالها بالدارجة مطلبا، فإن الأمر عندئذ ينقلب إلى قضايا تتعلق بأساس الشخصية الوطنية التي أرى أن العربية هي اللّبنة الأولى في بنائها.

في هذا السياق، استفدت كثيرا من التراث الشفوي، وبخاصة في قصيدة الجازية، التي راوحت فيها بين مستويات عديدة من اللغة، سواء من القاموس الفصيح

أو من السجل العامي البدوي والحضري التونسي، وكذلك المشرقي؛ فرسمت صورة للجازية، وجعلت من سيرتها مشاهد ولوحات ومواقف.. فيها الكثير من تقنيات الفنون الأخرى، إضافة إلى هنيات السرد وغيره من ضروب الكتابة والشعر بمختلف أنواعه.

إن مرجعية الشاعر الحديث اليوم، ما عادت تقتصر كما كانت على الشعر القديم المبثوث في المتون والمختارات والمصنفات من الدواوين، تلك التي يقتصر الإبداع الحقيقي فيها على بعض القصائد فحسب، بل صارت تلك المرجعية تستند أيضا إلى عديد النصوص الأخرى في الآداب القديمة والمعاصرة، تلك التي اطلعنا عليها، فاكتشفنا فيها آفاقاً وأنماط أخرى من الإبداع.

حاولنا أن نقتبس من تلك المعالم الإنسانية

إلى شعرنا الحديث من دون نسخ أو نقل مباشر؛ فالآداب تتلاقح وتتمازج وتتحاكى وتتطور، ليس بفعل الترجمة والاطلاع فقط، وإنما بسبب العوامل الاجتماعية والحضارية أيضا. فالجيل الذي كتب قصائده على نمط التفعيلة، الشعر الحر، وخرج على نمطية البحور والقوافي عند منتصف القرن العشرين، قد عبّر بذلك عن خروجه على نسق المجتمع العربي القائم على التقاليد والقيم، تلك التي تزحزحت بسبب التطور الكبير في حياتها، ذلك الذي استطاع أن يؤثر في كل شيء فيها من تخطيط المدينة ومعمارها، إلى فضاء البيت ومختلف العلاقات بين ذويه، ومن أدوات الكتابة والقراءة، إلى أدوات الطبخ، ومن الأثاث واللباس، إلى الأفكار والإحساس.

إنّ قصيدة جيل النصف الثاني من القرن العشرين عبّرت عن ذلك التغيير والشرخ الكبير الذي تمرّ به المجتمعات العربية ضمن دوافعه الاجتماعية والتاريخية العديدة.

> لقد حرص الشاعر على صياغة شخصيات ثابتة الجذور واضحة الأصل على اتّصال بالذّاكرة الشعبية وبالهموم العربية، ممّا يدفع المتلقّي العربيّ إلى الإحساس بأنّه يعرفها من قبل وأن علاقة حميمة تربطه بها أحبّ أم كره،، وهذا ما يدلّ على أنّ الشّاعر ليس من الذين يكتبون في إطار نقلي بحت من التراث، وليس من الذين يكتبون في إطار نقلي بحت من الثقافة الغربية، وإنّما هو ذاك الذي سعى إلى التنسيق بين الأصالة والمعاصرة، وطعّم الواقع بروح التّراث، إذ أنّ الشّعر دوره التجذير لا الانبتات، والتواصل والانفتاح، لا الانغلاق والتقوقع..
>
> **الميزوني البناني**

أمّا الجيل الموالي الذي تشكّل وعيه في سنوات الثلث الأخير من القرن العشرين، فقد عاش فترة الإنهيار والانكسار والدمار على المستوى المحلي والقومي والعالمي، فأراد أن يبني ويؤسس على غير ما وجد.. لعله يجد الخلاص؛ فرأيناه ينشد الجديد والغريب أحيانا، ليس في الشعر والآداب فحسب، وإنما في شتى الفنون، وقد استند على شرعية التجديد والبحث والتجريب، تلك التي ترنو إلى إنجاز إبداع يمثّل هواجسها، ويعبّر عن همومها وأحلامها، وذلك هو الأمل والمبتغى.. فحسب كل جيل أن يثبت بصماته!

لقد قلت مرة إن المحاولة في التجديد أفضل من النجاح في التقليد، وإن إيماني بهذه المقولة كان نتيجة المناخ الثقافي الذي كان سائدا سنة ١٩٧٠م، تلك السنة التي بدأت فيها النشر.

من قصائدي الأولى التي صورت فيها ذلك البحث وذلك الهاجس الجميل في تجاوز السائد قصيدة الحذاء:

جاء الربيع..

سيشتري حذاء

جاء الصيف..

سيشتري حذاء

جاء الخريف..

سيشتري حذاء

انقضى الشتاء..

فتعلّم المشي حافيا!

وإلى اليوم، وبعد مرور أكثر من ثلث قرن على هذه القصيدة، ما أزال أحاول وأبحث..!

ومن تلك القصائد أيضا قصيدة المحطة، التي عبرت فيها عن حيرتي المتأججة بين الأطروحات التي كانت قائمة وقتذاك، والتي كانت تتجاذبني مرة نحو اليسار، ومرة نحو اليمين، فجعلت من المحطة مشهدا يصور تلك المرحلة، فتلت في قصيدة المحطة:

وقف المسافر وسط الميدان

يسأل عن العنوان:

إلى اليمين.. ثم رويدا رويدا

إلى اليسار

- شكرا.

إلى اليسار.. ثم رويدا رويدا

إلى اليمين

- شكرا.

أخذ المسافر حقيبته

ومضى إلى الأمام..!

هكذا صورت التناقض الذي عاشته الذهنيات في تلك السنوات المتأجّجة بالأسئلة، وقد كانت الحركات الفكرية والسياسية قائمة على قدم وساق، سواء في الجامعة، أم في الشارع والمجتمع، أم في الأحداث العربية والعالمية، والواقع أنني كنت متابعا لها، وقارئا نهما لمختلف أطروحاتها وأدبياتها، فبقدر ما كنت أميل لرفض ممارسات الانضباط والتسلط، وبقدر ما كانت بعض الأيديولوجيات قائمة على الشمولية، بقدر ما كنت أجد التنوّع والاختلاف ثراءً في المعرفة، وزاداً لملء الوطاب، وغِنًى للفكر، وفسحة للرّوح، بحيث كنت أحب أبا ذر الغفاري وشيغيفارا معا، وكنت معجبا بغاندي وحنيبعل كليهما..

أنا لست منَظِّراً في الفكر والأيديولوجيا، ولا محترفا في السياسة؛ ولكنني وجدت أن التاريخ الإنساني أكبر وأشمل من كل النظريات؛ ومن ثَمَّ، فإن الشعر عندي أوسع من المعروض والبحور، وأشمل من البلاغة والبيان، وحتى اللغة قد تضيق به أحيانا..

ثمة قصائد عندي ما مسكتها بحرف، ولا أسكنتها ورقة، فلا عجب أن كتبت في السنوات الأخيرة بعض الأشعار العمودية، ربما بسبب الحنين إلى الجذور، أو بحثا عن طرافة القديم في خضمّ الجديد، لِمَ لا؟! والشعر عندي لا يُحدّ بأشكال ولا يُعدّ بأنواع!؟

صدر لي:

١- الأرض عطشى، ١٩٨٠م.

٢- نوّارة الملح، ١٩٨٤م.

٣- امرأة الفسيفساء، ١٩٨٥م.

٤- صديد الروح، ١٩٨٩م.

٥- جناح خارج السرب، ١٩٩١م.

٦- نبعٌ واحد لضفاف شتى، ١٩٩٩م.

٧- عُمر واحد لا يكفي، ٢٠٠٤م.